الباب الثاني

أخلاق الشيخ أبي إسحاق

وفيه سبعة فصول

الفصل الأول : عفافه

الفصل الثاني : كرمه

الفصل الثالث : ورعه

الفصل الرابع : عمله بعلمه

الفصل الخامس: تواضعه

الفصل السادس: جرأته في الحق

الفصل السابع : مجلسه

الفصل الأول: عفاف الشيخ أبي إسحاق

لقد عاش الشيخ أبو إسحاق قليل ذات اليد، لكنه عفيف النفس غنيها، ولو شاء لملأ كفه من كنوزها وخيراتها، وهو الرجل المحبوب لدى الإخوان، المقرب لدى السلطان، لكنه رضى منها بالدون، رغبة عما في يد الغير، إلى ما في يد الله تعالى.

قال القاضي محمد بن محمد الماهانى: إمامان ما اتفق لهما الحج: الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني - وكأني به سئل عن سبب ذلك - فقال: الشيخ أبو إسحاق، ما كان له إستطاعة الزاد والراحلة، ولكن لو أراد الحج لحملوه على الأحداق[1] إلى مكة[2] والدامغاني لو أراد أن يحج على السندس والإستبرق لأمكنه ذلك[3] .ا.هـ

ولما عرضت عليه المناصب الحكومية العالية، رفضها زهداً في

---

(١) الأحداق: جمع حدقة، محركة الأول والثاني، وهي سواد العين وتسمى الحندوقة بضم الحاء المهملة، فنون ساكنة، والحنديقة بكسر الحاء المهملة بعدها نون ساكنة، وتجمع أيضاً على حدق محركة الأول والثاني، وحداق ككتاب. أنظر القاموس (٣: ٢١٩).

(٢) وإنما لم يرد أبو إسحاق الحج مع أنه يعلم من أصحابه إستعدادهم بذل كل ما يحتاج إليه، خوف المنة، لما في تحملها من المشقة على كريم النفس كهو، وقد قال في المهذب (١: ١٩٧) وان بذلك له رجل راحلة من غير عوض، لم يلزمه قبولها، لأن عليه في قبول ذلك منّة ذلك، والمذهب لا يوجب على الأب تحمل منه الإبن فيما لو بذل له ولده الأجرة للحج في أصح القولين. أنظر شرح المحلي (٢: ٩٠).

(٣) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٥)، تهذيب النوي (٢: ١٧٤).

الدنيا وزهرتها، وتورعاً عن الوقوع في حقوق الغير.

كتب إبن الصلاح بخطه: لما توفي قاضي القضاة أبو عبد الله الحسين بن جعفر بن ماكولا ببغداد، أكره القائم بأمر الله الشيخ أبا إسحاق الفيروز أبادي على أن يتقلد له النظر في الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً، فامتنع[1] .ا.هـ

---

(١) طبقات إبن السبكي (٣:٩٩).

الفصل الثاني: في كرم الشيخ أبي إسحاق

لم يكن فقره رحمه الله ليحول بينه وبين بذل ما قد يتحصل لديه من عرض الدنيا، فما كان يصل إليه شيء منها ـ على قلته ـ حتى يبادر إلى إنفاقه في سبيل الخير هنا وهناك.

وهذا دليل قوي على قوة إيمان المرء، وثقته بما في يد الله تعالى، والصدقة على هذا الوجه أفضل الصدقات وأرجاها قبولاً وأعظمها أجراً، روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا. وقد كان لفلان.ا.هـ وصدق من قال:

ليس العطاء من الفضول سماحة

حتى تجـــود ومـــا لديك قليـــل

وفي العادة أن المرء إذا حصل على شيء من المال، قبض عليه كفه وحرص على الإحتفاظ به، ليضيف إليه غيره، أملاً في أن يغتني به في المستقبل، ويغفل عن وعد الله له بالإخلاف إذا أنفقه، في قوله تعالى ﴿**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**﴾.[1]

وفي قوله ﷺ: **ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط**

---

(١) سورة سبأ: ٣٩.

ممسكاً تلفاً[1] .ا.هـ

وفي التصدق بالمال على شدة الحاجة إليه إنتصار على النفس، وقهر لشهواتها، وقد إمتدح الله المؤمنين الأوائل بأنهم **﴿يؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**[2] أي حاجة إلى ما ينفقونه.

والشيخ أبو إسحاق من هذا النوع من الناس، فقد حكى السمعاني عنه انه كان يشتري طعاماً كثيراً - أي إذا وقع في يده شيء من المال - ويدخل بعض المساجد، ويأكل مع أصحابه، وما فضل قال لهم: أتركوه لمن يرغب فيه[3] .ا.هـ

وهذا المتروك على قلته، إلا أنه من مثل الشيخ أبي إسحاق على فقره، قد يفوق في الأجر والدلالة على الكرم، ما يبذله الرجل الميسور، فقد روى النسائي عن أبي هريرة مرفوعاً: **سبق درهم مائة ألف، قالوا: يا رسول الله وكيف؟ قال: رجل له درهمان، فأخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرض[4] ماله مائة ألف فتصدق بها**[5] .ا.هـ

(١) رواه مسلم (٢: ٧٠٠) كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك رقم (٥٧).

(٢) سورة الحشر: ٩.

(٣) تهذيب النووي (٢: ١٧٣) المجموع (١: ٣٣).

(٤) بضم العين المهملة بعدها راء ساكنة، يطلق على جانب الشيء خاصة. أنظر بصائر ذوي التمييز (٤: ٤٤).

(٥) رواه النسائي (٥: ٥٩) كتاب الزكاة، تحت عنوان: جهد المقل: وظاهر الحديث يدل على أن الاجر على قدر حال المعطي لا على قدر المال المعطى، وقيل: معناه هو ما إذا صار إعطاء الفقير سبباً في ذلك الغني تلك الدراهم، فيكون=

ولذلك إستحق أن يصفه النووي بأنه كان: كريماً، سخياً جواداً[1] .ا.هـ

= له مثل اجر الغني وزيادة أجر الدرهم الذي تصدق به هو.ولكنه معنى فيه بعد، وقد قال السندي في حاشيته على النسائي لكن لفظ الحديث لا يدل على هذا المعنى ولا يناسبه.ا.هـ

(١) تهذيب النووي (٢: ١٧٣).

الفصل الثالث: ورع الشيخ أبي إسحاق

وأما الورع فلقد كان في الشيخ منه نصيب وافر، حمله في كثير من الأحيان، على ترك حقه لأدنى شبهة قد تحوم حوله.

وعن بعض ذلك حدث السمعاني، بقوله: أنه سمع بعض اصحاب الشيخ يقول: دخل أبو إسحاق يوماً مسجداً ليتغذى، فنسي ـ أي في المسجد بعد خروجه منه ـ ديناراً، ثم ذكر، فرجع، فوجده ففكر، ثم قال: لعله وقع من غيري[1] .ا.هـ

ووجه الورع فيه من ناحيتين:

إحداهما: أنه قدم إحتمال كون الدينار من غيره على إحتمال أن يكون منه هو، مع أن الثاني أقرب، لأنه وجده في المكان الذي إفتقده فيه.

والناحية الثانية: أنه على فرض أن الدينار ليس له، فإنه لقطة يجوز له أخذه، ولا يلزمه تعريفه في أحد ثلاثة أوجه في المذهب، لما روي أن علياً كرم الله وجهه، وجد ديناراً، فعرفه ثلاثاً، فقال له النبي ﷺ: **كله أو شأنك به**،[2] **والوجه الثاني: يعرف ما يقطع به**

---

(١) طبقات ابن السبكي (٣:٨٩)، وفي تهذيب النووي (٢:١٧٣) فتركه ولم يمسه.ا.هـ

(٢) رواه أبو دواود (٢:١٣٧) كتابه اللقطة. رقم ١٧١٤، عن عبيد الله بن مقسم، حدثه رجل عن أبي سعيد الخدري أن علي ابن ابي طالب وجد ديناراً، فأتى به فاطمة، فسألت عنه رسول الله ﷺ فقال: هو رزق الله عز وجل فأكل منه رسول الله ﷺ وأكل علي وفاطمة ـ وتمامه ـ فلما كان بعد ذلك، أتته إمرأة تنشد الدينار فقال رسول الله ﷺ : يا علي أد الدينار.ا.هـ وفي إسناده رجل مجهول كما =

السارق، ولايعرف ما دونه، لأنه تافه، ودليله قول عائشة ما كانت اليد تقطع على عهد رسول الله ﷺ في شيء تافه.[1]

والوجه الثالث: يعرف القليل والكثير سنة.[2]

فعمل الشيخ رحمه الله بالوجه الثالث، لأنه أحوطها، ولذلك رجحه في مهذبه بقوله: وهو ظاهر النص، لعموم الأخبار[3] .ا.هـ

بل حصل منه ما هو أكثر من ذلك، فقد قال أبو بكر محمد بن علي البروجردي: أخرج أبو إسحاق يوماً قرصين من بيته، فقال لبعض أصحابه: وكلتك في أن تشتري لي الدبس والراشي،[4] بهذه

= ترى. وانظر مختصر سنن أبي داود (٢: ٢٧١) رقم ١٦٤٠، ورواه أبو داود أيضاً مطولاً (٢: ١٣٨) من طريق موسى بن يعقوب الزمعي، رقم ١٧١٦ لكن موسى هذا اختلف فيه فوثقه ابن معين وقال إبن عدي: لا بأس به.
وقال النسائي: ليس بالقوي. أنظر مختصر سنن أبي داود (٢: ٢٧٢)، رقم١٦٤٢.

(١) رواه ابن ابي شيبة في مصنفه، وسنده: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن هشام بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: لم تكن يد السارق تقطع على عهد رسول الله ﷺ في الشيء التافه.ا.هـ
وقد صححه ابن حزم في المحلي (١٣: ٣٩٥).
ورواه ابن أبي شيبة أيضاً عن وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلاً أنظر النصب (٣: ٣٦٠). ورواه عبد الرزاق في مصنفه: أخبرنا ابن جريج عن هشام بن عروة عن ابيه مرسلاً أيضاً. (١٠: ٢٣٥) رقم ١٨٩٥٩ باب في كم تقطع يد السارق.

(٢) المهذب (١: ٤٣٠).

(٣) نفس المصدر.

(٤) وهو ما يعرف بالطحينة. هذا عند البغداديين، ويسميه أهل البصرة بالرهش.

القرصة على وجه هذه القرصة، فمضى الرجل، وشك - أبو إسحاق - بأي القرصين إشترى، فما أكل الشيخ ذلك، وقال: لا أدري اشترى بالذي وكلته، أم بالأخرى[1] .ا.هـ

وموقفه هذا مبني على أن الوكيل إذا خالف الموكل في بيع ماله أو الشراء بعين ماله، فتصرفه باطل، كأن وكله ببيع عبد، فباع آخر أو بشراء ثوب بهذا الدينار، فاشترى به آخر.[2] فإن تصرفه غير صحيح لأنه فعل غير ما أذن له به الموكل، فيكون متصرفاً في مال الغير بغير إذنه وذلك لايجوز، فيبطل.

فمحل البطلان المذكور: هو ما إذا خالف الوكيل الموكل حقيقة، وأما في حادثة الشيخ أبي إسحاق، فإن مخالفة الوكيل لأبي إسحاق محتملة، فلا يبطل بها العقد، والأصل حمل العقد على الصحة ما أمكن، لكن أبا إسحاق غلب إحتمال وقوع المخالفة من الوكيل وهذا هو محل الورع منه رحمه الله.

ومما يذكر من ورعه أيضاً، أنه حين بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية ليدرس بها، رفض إفتتاحها والتدريس بها لما بلغه من أن أكثر الاتها مغصوبة، ولما مورست عليه ضغوط من تلاميذه كبيرة، قبل التدريس بها، إلا أنه كان إذا حضر وقت الصلاة خرج منها إلى أقرب مسجد فيصلي فيه ثم يرجع،[3] رحمه الله، كم كان قلبه حياً مستحضراً روح الإستعلاء على الباطل، متحدياً له في كل

---

(١) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٠).

(٢) أنظر شرح المحلي (٢: ٣٤٥).

(٣) أنظر وفيات الأعيان (٢: ١٢٩).

أشكاله وصوره، فأين علماؤنا من مثل ذلك.

ولا عجب بعد هذا، أن يكون الشيخ أبو إسحاق كما قال فيه النووي: مستجاب الدعوة،[1] فإن للورع مدخلاً كبيراً في ذلك، وقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص في وصيته له: **يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة وقد فعل، فكان له ذلك.**[2]

وروى أبو هريرة مرفوعاً: **يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾.**[3] وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾**[4] **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له**[5] .ا.هـ

---

(١) تهذيب النووي (١: ١٧٤).

(٢) كان سعد مستجاب الدعوة ببركة دعاء النبي ﷺ له إذ قال: اللهم إستجب لسعد إذا دعاك. رواه الترمذي (٥: ٦٤٩) كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن أبي وقاص رقم ٣٧٥١ وصححه.

(٣) سورة المؤمنون: ٥١.

(٤) سورة البقرة: ١٧٢.

(٥) رواه مسلم (٢: ٧٠٣) كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ٦٥.

الفصل الرابع: عمل الشيخ أبي إسحاق بعلمه

لقد نال رحمه الله من الشهرة لإخلاصه وعلو كعبه في العلوم والفنون المختلفة من فقه وأصول وحديث، ما جعله محط أنظار العامة والعلماء والساسة على سواء، ومثل هذه المنزلة الرفيعة تحتاج للحفاظ على النفس معها من الإنسياق وراء شهوة الحفاظ على الشهرة والمكانة، إلى ضرب من التوفيق، لا يتحصل إلا بإخلاص النية لله تعالى، في العلم، وبالعمل به، فإن العمل ثمرة العلم والقبول لدى الناس[1] ثمرة الإخلاص فيها. والدليل عليه: ما رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً، فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض[2] .ا.هـ

وقد كان الشيخ أبو إسحاق عاملاً بعلمه، ويدعو غيره إلى ذلك فيقول: العلم الذي لا ينتفع به صاحبه: أن يكون الرجل عالماً، ولا

---

(١) أعني بهم: المخلصين في محبتهم لله تعالى، الذين لا يتبعون غيرهم في الحب والبغض، بل يزنون الأمور بميزان الحق والشرع. وأما العامة من الناس فلا عبرة بمحبتهم لشخص ولا بغضهم له، لانهم مضللون بما تنسجه وسائل اعلام محبوبهم من المحاسن المكذوبة له، والمساوىء المكذوبة على خصومه. ولذلك كان أكثر أهل الأرض فاسقين ضالين. وعلى الضد من ذلك أهل الخير والحق. فقد قتل من الأنبياء كثير وكذبهم قومهم، وقد يأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد فالرجال تعرف بالحق ولا يعرف الحق بهم.

(٢) رواه البخاري (٤:٥٦). كتاب الادب، باب المقة من الله تعالى. والمقة بكسر الميم وفتح القاف المخففة: أي المحبة ا.هـ حاشية السندي عليه.

يكون عاملاً[1] .ا.هـ

وكان يحث نفسه على ذلك أيضاً، وهو موضع القدوة، فيقول:

علمت ما حلل المولى وحرمه

فاعمل بعلمك إن العلم بالعمل[2]

بل كان يذكر الآخرين أيضاً ويحثهم على العمل بما علموا ليكونوا هداة لمن لم ينل من العلم ما نالوه، وليكون عملهم حجة لهم، فيقول: الجاهل بالعلم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل بعلمه، فالجاهل ما يرجوه من نفسه، فالله يا أولادي[3]، نعوذ بالله من علم يكون حجة علينا[4] .ا.هـ

ومما يذكر من علمه بدقائق الفقه، انه كان يمشي يوماً مع بعض أصحابه من الفقهاء، في طريق، فعرض لهما كلب، فقال الفقيه لذلك الكلب: إخسأ، وزجره، فنهاه الشيخ عن ذلك، وقال: لم طردته عن الطريق، أما علمت أن الطريق بيني وبينه

---

(١) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٤).

(٢) نفس المرجع.

(٣) كان يخاطب تلاميذه بذلك، فقد كان يقول: من قرأ على مسألة فهو ولدي.ا.هـ طبقات ابن السبكي (٣: ٩٤).

(٤) نفس المرجع. وهو يشير بذلك إلى قوله ﷺ لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسال: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه .ا.هـ رواه الترمذي (٤: ٦١٢) كتاب صفة القيامة رقم الحديث ٢٤١٦، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح .ا.هـ

مشترك.ا.هـ[1]

وقد كان الشيخ رحمه الله يستحضر الإخلاص في عمله، ويقدم النية عليه، قال النووي: وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق في أول كتابه الملخص في الجدل جملاً من الآداب للمناظرة، وإخلاص النية وتقديم ذلك بين يدي شروعه فيها. وكان فيما نعتقده متصفاً بكل ذلك[2] .ا.هـ

وفصل لنا أبو الوفاء بن عقيل وهو تلميذ الشيخ أبي إسحاق المطلع على الكثير من أحواله مما قد يغيب عمن لم يلازمه معرفته، فقال: شاهدت شيخنا أبا إسحاق لا يخرج شيئاً إلى فقير إلا أحضر النية ولا يتكلم في مسألة الا قدم الإستعانة بالله عز وجل، وأخلص القصد في نصرة الحق، ولا صنف مسألة الا بعد أن صلى ركعات ـ ثم يشير إلى بركة ذلك وثمرته العاجلة فيقول ـ: فلا جرم شاع اسمه وانتشرت تصانيفه شرقاً وغرباً، لبركة إخلاصه[3] .ا.هـ

---

(١) نفس المرجع.

(٢) المجموع (١: ٣٣).

(٣) تهذيب النووي (٢: ١٧٣)، المجموع (١: ٣٣)، وانظر المنتظم (٩: ٦).

الفصل الخامس: في تواضع الشيخ أبي إسحاق

ثم هو الى جانب ذلك، متواضع، طارح للتكلف، وهما صفتان قلما يتصف بهما من يصل إلى مثل ما وصل إليه أبو إسحاق، لما أنه يقابله الكبير والصغير المأمور والأمير، ولكن الشيخ كان مشغول البال عن مراعاة ذلك، بما هو فيه من العلم والتعليم وتثقيف النفس وتهذيبها كي لا ينفلت منه زمامها، فتغتر بما حولها من مغريات الجاه والسمعة فكان إذا أحسّ فيمن يواجهه بنوع اشفاق من مقابلته، لما يعلم من علو مكانته في العلم والديانة والجاه، كان يسارع إلى تبديد هذا الوجل من نفسه، بعبارة ترفع من شأن المخاطب، وتبعث فيه معنى الشجاعة لمقابلة الشيخ وتعيد إليه ثقته بنفسه.

ومما يحكى عنه في ذلك، أن الشيخ الإمام أبا إسحاق كان يسأل أبا القاسم عبيد الله الرقي، عالم اللغة والأدب، عن الكلمة في اللغة، ويقول له: حين يرى ما يقع في نفسه من مهابة الشيخ أبي إسحاق ـ قدّر أنه سألك عنها صبي، ولا تقل أنه سألني عنها الشيخ ابو إسحاق[1] .ا.هـ

والشيخ رحمه الله يفعل ذلك، أسوة بالنبي ﷺ، فقد رآه رجل فهابه، فقال له النبي ﷺ: هون عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة[2] . ا.هـ فذكره بوصف يستطيع معه أن يحس بشيء من التقارب بينه وبين الإنسان النبي ﷺ الذي كان ابن امرأة فقيرة من عامة الناس يضطرها فقرها لأن تأكل اللحم اليابس المقدد، إذ لا

---

(١) نزهة الألباء (ص٣٥٨) رقم ١٥٠.

(٢) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١: ١٣٣).

تستطيع الحصول على النيء منه في كل وقت.

ومما يذكر من تواضعه، ما حكاه أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الإنماطي قال: كان الشيخ يتوضأ في الشط، فنزل المشرعة[1] يوماً، وكان يشك في غسل وجهه، وتكرر، حتى غسل نوباً ـ جمع نوبة وهي المرة ـ عدة، فوصل إليه بعض العوام، وقال يا شيخ أما تستحي. تغسل وجهك كذا وكذا نوبة، وقد قال النبي ﷺ: من زاد على الثلاث فقد أسرف[2].

فقال له الشيخ: لو صح لي الثلاث ما زدت عليها. فمضى ـ الرجل ـ وخلاه.

فقال له واحد: ايش قلت لذلك الشيخ الذي كان يتوضأ.

فقال الرجل: ذاك شيخ موسوس، قلت له كذا على كذا.

فقال له: يا رجل أما تعرفه.

فقال: لا.

قال: ذاك إمام الدنيا وشيخ المسلمين، ومفتيى أصحاب الشافعي.

فرجع ذلك الرجل خجلاً إلى الشيخ، وقال: يا سيدي تعذرني

---

(١) هي مورد الشاربين من النهر. انظر المختار (ص٣٣٥).

(٢) رواه النسائي (١: ٨٨) كتاب الطهارة، باب الإعتداء في الوضوء عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء اعرابي إلى النبي ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: هكذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم. ا. هـ

فإني قد أخطأت وما عرفتك[1].

فقال الشيخ: الذي قلت، صحيح. فإنه لا يجوز الزيادة على الثلاث، والذي أجبتك به أيضاً صحيح، لو صح لي الثلاث، ما زدت عليها[2]. ا.هـ

وأما طرحه للتكلف، فمما يحكى عنه فيه، ما قاله القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري: حملت فتوى إلى الشيخ إبي إسحاق فرأيته في الطريق، فمضى إلى دكان خباز أو بقّال، وأخذ قلمه ودواته، وكتب جوابه، ومسح القلم في ثوبه[3]. ا.هـ

قلت: فلعل الشيخ لم يجد ما يمسح به قلمه، فمسحه بثوبه طارحاً تكلف المحافظة على أناقة مظهره، ما دام ان الحبر ليس بنجس.

وأعجب من ذلك، أنه ربما وضع قرصِ الخبز في كمه، حتى وإن ذهب إلى مجامع الناس من الأعيان فضلاً عن العامة، فقد «حضر يوماً الديوان، فناظر مع أبي نصر ابن القشيرى، فأحس - ابن القشيرى - في كمه - أي الشيخ أبي إسحاق - بثقل فقال له: يا سيدي ما هذا ؟ فقال - الشيخ -: قرصتي الملاح»[4].

---

(١) أرأيت، كيف أن العامى لا يعتبر رأيه إذ حكم على الإمام بالوسوسة. وإنه خاضع لتوجيه الغير، فقد غير رأيه بعد أن عرفه به من علم قدر الشيخ.

(٢) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٥).

(٣) تهذيب النووي (٢: ١٧٣)، المجموع (١: ٣٣).

(٤) المنتظم (٩: ٦). ولعل الصواب: قرصتاي المليحتان.

الفصل السادس: جرأته في الحق

لم يكن الشيخ أبو إسحاق ممن يداهن في الحق، خوفاً على نفس أو جاه، فإنه يعلم أن الأعمار بيد الله، وإن نفساً لن تموت قبل أجلها، وان الأرزاق بيد الله، وان أحداً لا يمكنه أن يمنعه شربة ماء، كانت مكتوبة له، ويعلم أن الجاه ظل زائل، وإنما جاءه الجاه والشهرة والمكانة، بسبب ما كان من إخلاصه، في علمه وعمله، وإنه إذا داهن حفاظاً على ذلك الجاه، فإنما يعمل بذلك في الحقيقة على زواله، لأنه من عند الله وما عند الله لا يطلب ولا يستدام بمعصية الله، ولذلك كان حريصاً على قولة الحق للناس كافة، على اختلاف طبقاتهم. وعلى رأسهم الحكام ذووا السلطة والسنان. الذين جرت العادة بالخوف منهم، ومداهنتهم، فمن لم يخف منهم، فأولى به ان لا يخاف من غيرهم.

والشيخ رحمه الله لم يكن يهاب الحكام، فاحترموه، وكان له في نفوسهم مكانة كبيرة، واحترام عظيم.

نقل ابن السبكي عن ابن الصلاح من خطه، «أنه لما توفى قاضي القضاة أبو عبد الله الحسين بن جعفر بن ماكولا ببغداد، أكره القائم بأمر الله أبا إسحاق الفيروز أبادي على أن يتقلد له النظر في الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً، فامتنع. فوكل به - أي من يقنعهم بذلك ترغيباً او ترهيباً - فكتب الشيخ إليه -: ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكني معك. فبكى القائم بأمر الله، وقال هكذا فليكن العلماء، إنما اردنا أن يقال: إنه كان في عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع، وقد

أعفيناه[1] .ا.هـ

ولقد جامل الكثيرون من أهل العلم في عصره الوزير نظام الملك، حين عدد خيراته ومنجزاته التي عم بخيرها الخلائق وذكر ما هو عليه من الإلتزام بالعدل في الرعية، واجتناب المعاصي واستفتى العلماء في ذلك، : هل يعد بهذا كله من أهل الجنة؟

فأجابوه بأنه من أهل الجنة، فلما طالع جوابهم، قال ـ وهو الذي خبر الناس ولديه أخبار العامة والخاصة ـ لا يطمئن قلبي بهذا الا ان يكتب عليه الشيخ الإمام أبو إسحاق، لما عرف من ورعه وجرأته في الحق.

فكتب عليه: الحسن خير الظلمة. وكان إسم نظام الملك الحسن. فلما طالعه نظام الملك قال: صدق الشيخ، هذا هو الجواب. وأوصى بأن تجعل صورة من جواب الشيخ في كفنه ـ أي نظام الملك ـ فلما قتل السلطان نظام الملك، فعلوا ما أوصى به، فرآه بعض الصالحين في المنام، فسأله عن حاله، فقال: قد وهبني الله ما فعلت من المعاصي، وقال: قد وهبناك لأجل سبق قلم الشيخ لك بالخير.

فكانت هذه الحادثة منقبة عظيمة للشيخ رضي الله عنه[2].

قلت: هي منقبة أيضاً لنظام الملك، إذ لم تأخذه العزة بالإثم، فحين عرف صدق لهجة الشيخ إنصاع للحق، واعترف به، ويوم أن

---

(١) طبقات ابن السبكي (٣:٩٩).

(٢) انظر مفتاح السعادة (٢:٣١٩) والتي تليها.

يكون في أمتنا مثل الشيخ أبي إسحاق في صدق اللهجة، والنصح للحاكم بقصد تقويمه، لا بقصد التشنيع عليه لفضحه وتأليب الناس عليه ـ ما لم يكفر بقول أو بفعل ـ سيكون فيها حينذاك مثل نظام الملك في سماع كلمة النصح والإعتراف بالحق وتقدير أهله.

الفصل السابع: مجلس الشيخ أبي إسحاق

لم يكن الشيخ أبو إسحاق على ما جبل عليه من الجد والنشاط والتفاني في الآمال العالية والأهداف السامية التي تتطلب الحزم والعزم، مقطباً ولا متجهماً، بل كانت أساريره ومعالم وجهه تتهلل للحدث المفرح وتنفرد للخبر السعيد، وإذا جالس أقرانه وتلاميذه تباسط معهم وأدخل السرور إلى قلوبهم، «فكان يحكي الحكايات الحسنة والأشعار المستبدعة المليحة، وكان يحفظ منها كثيراً»[1]، مما يزيد الألفة به والقرب منه، فتنفتح له القلوب ليلقى فيها من علمه ما يفتح الله به عليه، ومن ثم يقوم الطلبة بنشره في بلادهم إذا رجعوا إليها، وفي محيطهم إذا أووا إلى أقرانهم.

حكى أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الخطيب الموصلي قال: لما جئت إلى بغداد، قاصداً الشيخ أبا إسحاق، رحب بي وقال: من أي البلاد أنت، فقلت: من الموصل، فقال: مرحباً، أنت بلدي[2]. فقلت: يا سيدي انا من الموصل وأنت من فيروز أباد، فقال: يا ولدي، أما جمعتنا سفينة نوح[3].

وكان يضفي على طلبته بمعاني الرأفة والرحمة والشعور بالقربى منه، فيقول: «من قرأ علي مسألة فهو

---

(١) المجموع (١: ٣٣)، التهذيب (٢: ١٧٣).

(٢) أي أنا وإياك من بلد واحد.

(٣) أي فكانت للمؤمنين جميعاً وطناً واحداً. وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الأمن سبق عليه القول ومن آمن﴾ سورة هود: ٤٠.

ولدي»[1].

وإذا سأله بعض طلبته سؤالاً غير وجيه، أو في غير محله لم يعنفه ولم يقس عليه. وإنما يكتفي من ذلك بقوله:

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتّان بين مشرق ومغرب[2]

وهو إذ يتخلق بكل ذلك، إنما يفعله إقتداء بهدى رسول الله ﷺ، فما كان أحد أكثر جدية من رسول الله ﷺ ولا أكثر حزماً واهتماماً بالأمور جليلها ودقيقها منه، ومع ذلك فقد كان يبتسم ويباسط أصحابه، ويمازحهم ولا يقول مع ذلك الا حقاً، جاءته امرأة وقد كبر سنها، فقال لها: لا تدخل الجنة عجوز، فحزنت، فقال لها: الم تقرئي قول الله تعالى ﴿**إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عربا أتراباً**﴾[3] أي متساوون في سن الشباب كما قال انس وإبن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة[4].

وكان يقول ﷺ: **بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**[5]. وقد خدم أنس بن مالك رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال له في شيء: إفعله ولَمْ يفعله، لِمَ لَمْ تفعله ولا قال له في شيء: لاتفعله،

---

(١) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٤).

(٢) طبقات ابن السبكي (٣: ٩٥).

(٣) سورة الواقعة: ٣٧.

(٤) روح المعاني (٢٧: ١٤٢).

(٥) رواه مسلم (٣: ١٣٥٨) كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير. رقم (٦).

وفعله، لِمَ فعلته.

وبالجملة فهذه اخلاق المؤمنين التي حض عليها الله تعالى بقوله: ﴿**محمد رسول الله، والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ [1] فكم حرى بعلماء أمتنا ودعاتها أن يتخلقوا بذلك، إذن لأفلحوا.

وقد أجمل لنا الحافظ أبو سعد السمعاني أوصاف الشيخ أبي إسحاق بعبارة موجزة مستوعبة، فقال: كان زاهداً ورعاً متواضعاً متخلقاً ظريفاً كريماً سخياً، جواداً، طلق الوجه، دائم البشر حسن المجالسة مليح المحاورة[2] .ا.هـ

وقال السمعاني في موضع آخر أيضاً: كان يكثر مباسطة أصحابه بما سنح له من الرجز، وكان يكرمهم ويطعمهم[3] .ا.هـ

فيا ليتنا نتحلى بصفات سلف أمتنا الحسنة من الإيمان والعمل الصالح ومن قمة العمل الصالح الإخلاق الحسنة، والسلوك الطاهر ولذلك فقد قال ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [4].

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) المجموع (١: ٣٣)، تهذيب النووي (٢: ١٧٣).

(٣) نفس المصدر.

(٤) أورده مالك في الموطأ بلاغاً، عن النبي ﷺ قال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً: انظر المقاصد الحسنة (ص١٠٥) رقم ٢٠٤.

وقال شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبدون ذلك نصبح فتنة للذين كفروا، وأداة صد عن دين الله فإن المبدأ الذي لا يدعمه العمل به، لا يبقى له في قلوب الآخرين صدى فيحترمونه.